

اللغة العربية و دعوات التيسير بين واقع التأصيل و طموح الحداثة

originality and the ambition for The Arabic Language and The Calls for Lightening Between modernity

La langue arabe et les appels pour la péréquation entre originalité et modernisme

د.وردة مسييلي

جامعة قسنطينة (01) (الجزائر)

Abstract:

Grammar is one of the Most important pillars of the standard Arabic. Due to its intellectual richness , it promotes it to a higher pragmatic degrees because of its communicative nature which is very needed among persons.

Because of its vital necessity in both communication and speech or language , a large group of linguists do not stop calling for keeping the ancient methods and the modernization of these methods in the same time through which other syllabus and methods are reinforced.

This study intends to put a spot light on the movement and the efforts of the lightening of grammar which is considered

Key words: Arabic Language, Lightening, originality, modernity

Résumé:

La grammaire est le plus important pilier de la langue académique, grâce à sa richesse cette langue a atteint les cercles pragmatiques produit par ses sujets de nature purement communicationnelle liés étroitement aux interlocuteurs. pour sa nécessité vitale concernant la communication et la langue parlée, un large groupe de linguistes appellent incessamment pour garder les méthodes classiques pour une éventuelle modernisation visant une qualité meilleure des études spécialisées .

Cette étude vise essentiellement le suivi du mouvements et des efforts fournis par les linguistes pour l'allégement de cet élément fondamental de la langue qu'est la grammaire.

Mots clés : La langue arabe ,les appels, la péréquation ,originalité ,modernisme.

الملخص:

بعد مبحث النحو العربي من أهم المرتكزات التي تتركّز عليها اللغة العربية الفصيحة و قد ارتقى علم العربية "النحو" بفضل كثافته الفكرية إلى مصاف الدوائر التداولية التي تشكّلها موضوعاته بوصفها ذات طبيعة تواصلية بحثية بحيث تتصل اتصالاً وثيقاً بالمخاطبين، و لهذا تualaت أصوات اللغويين منذ القديم منادية بضرورة العناية بهذا الفرع اللغوي الحساس و ذلك بتقويم مناهجه القديمة و استحداث مناهج أخرى تتعرّز من خلالها الدراسات النحوية المتخصصة من هذا المنطلق ستسعى الباحثة إلى الإمام بشتات هذه المحاولات ممثلة في استقصاء و تتبع حركية جهود التيسير في عنصر مهمٍ من عناصر الإفصاح و هو النحو العربي باعتباره خيطاً متيناً من نسيج اللغة و المشكل معظم العملية التبليغية.

الكلمات المفاتيح: اللغة العربية، التيسير، التأصيل، الحداثة

بعد مبحث النحو العربي من أهم المرتكزات التي توکأ عليها اللغة العربية الفصيحة وقد ارتقي علم العربية "النحو" بفضل كثافته الفكرية إلى مصاف الدوائر التداولية التي تشكلها موضوعاته بوصفها ذات طبيعة تواصلية بحثية بحيث تتصل اتصالاً وثيقاً بالمخاطبين، ولهذا تعللت أصوات اللغويين منذ القديم منادياً بضرورة العناية بهذا الفرع اللغوي الحساس وذلك بتقويم مناهجه القديمة واستحداث مناهج أخرى تتعزّز من خلالها الدراسات النحوية المتخصصة وفي هذا الصدد يقول محمد عيد : "ليس هناك علم من العلوم قد نال من العناية ما ناله النحو العربي قديماً وحديثاً ، فمنذ القرن الأول الهجري و المجهودات العلمية تتواتي في هذا العلم حتى العصر الذي نعيش فيه" من هذا المنطق ستسعى الباحثة إلى الإلعام بشتات هذه المحاولات ممثلة في استقصاء و تتبع حركة جهود التيسير في عنصر مهمٍ من عناصر الإفصاح وهو النحو العربي باعتباره خيطاً متيناً من نسيج اللغة و المشكل معظم العملية التبلغية التي تختار معطياتها من داخل الكينونة اللسانية و تصوغ خصوصياتها من بطن واقع الاستعمال الواسع أيضاً . من خلال هذا الطرح تتهيأ لنا قراءة أفقية لمعالم النحو العربي الذي تتجاذبه قوتان عنيفتان ؛ قوة واقع التأصيل و قوّة طموح الحادة الموحيتان بتحقيق أهداف شتى عامة و خاصة :

أما الأهداف العامة فتتمثل فيما يأتي :

- محاولة إثبات أن النحو في كل الثقافات الإنسانية من أخصب النشاطات الفكرية التي اتخذت اللغة مجالاً للدراسة و البحث.

- تعريف مصطلح النحو كما ورد في كتب النحويين مفيد للدارس . إذ يعدّ ضرباً من المقدمة التي تصور حقيقة مكونات النظرية النحوية؛ فالنظر في الميراث العربي ناطق برؤية نموذجية للحدث اللساني يمكن الكشف عن أهدافها التطبيقية من خلال تعدد القراءة لمصطلح "النحو" الذي عرف عند العرب القدماء زخماً اصطلاحياً حيث أطلق عليه عدة مصطلحات هي العربية، الإعراب اللحن، قبل أن تستقر تسميته نمواً.

- بيان الوظيفة الاصطلاحية للنحو كمعيار دقيق تقاس به الكلمات أثناء وضعها في الجمل و هو بذلك عماد اللغة و له الفضل في التمييز بين دلالات التراكيب اللغوية و بدونه يجهل السامع المعنى المراد إذ أركان علوم اللسان أربعة: اللغة و النحو، و البيان و الأدب، و إن الأهم المقدم منها النحو إذ يُبيّن به أصول المقادد بدلاً، فيعرف الفاعل من المفعول، و المبتدأ من الخبر و لواه لجهل أصل الإفادة. فهو إذن مصحّحة ينتعش فيها اللسان العربي و يكتسب مناعة ضدّ رطانة اللحن و الخطأ.

أما الأهداف الخاصة فنذكر منها :

- إبراز حقيقة عجز اللسان العربي عن توظيف قواعد النحو في الحديث و الكتابة مما أكّد العمل على تيسير النحو العربي.

- المكانة المرموقة و المتميزة التي يحتلّها التراث النحوي في الثقافة العربية مما سوّغ إصلاح النحو و تيسيره إذ بات مشغلاً بارزاً من مشاغل المتقفين العرب في العصر الحديث و المعاصر، لاسيما بعد النتائج الإيجابية التي حققتها الدراسات اللغوية الحديثة على صعيد البحث اللساني النظري و التطبيقي.

إن هذا الوضع القلق، الانطباعي التراكمي قد أفرز ظاهرة خطيرة لا تهدّد الجانب التداولي و التعليمي من العربية فحسب و إنما تتعدّاهما إلى التأثير في الكيان اللغوي في العالم العربي الحديث كلّه على صعيد المشهد التعليمي التربوي و الفكري الحضاري.

إن الدعوة باتت ملحةً إلى جعل الموروث اللغوي و خاصة المباحث النحوية مدونة في غاية الأهمية لإنجاز البحوث الميدانية بمختلف مقارباتها العلمية ، و من هذا المنطلق صار لزاماً على الجامعات العالمية الاهتمام بهذا الحقل المعرفي باستحضاره في تخصصاتها بشتى أشكاله سواءً أكان مخطوطاً أم مطبوعاً طباعة حجرية أم رقمية و تشجيع

الباحثين على ذلك و التأكيد على قيمة هذا المتن في دراسة التحولات اللغوية و الفكرية و الاجتماعية و الاستماع إلى ثقافة المجتمع العربي و هي تتشكل.

مفهوم النحو في الثقافة اللغوية العربية

يعد النحو في كل الثقافات الإنسانية من أقدم الممارسات الفكرية التي تناولت اللغة بالدراسة و التحليل. وتعريف مصطلح "النحو" كما ورد في كتب النحويين مفيد للدارس قبل أن يتعرض لمختلف إجراءات المقاربة الوظيفية و كيفية قراءتها للمنظومة النحوية العربية؛ إذ إن تعريف مفاهيم النحو يعد ضربا من المقدمة التي تصور حقيقة مكونات النظرية النحوية؛ فالنظر في الميراث العربي ناطق برأيه نموذجية للحدث اللساني يمكن الكشف عن أهدافها التطبيقية من خلال تعدد القراءة لمصطلح "النحو" الذي عرف عند العرب القدماء زخما اصطلاحيا حيث أطلق عليه عدة مصطلحات هي العربية، الإعراب اللحن، قبل أن تستقر تسميته نحو¹.

ففي الثقافة اللغوية العربية القديمة، أصل كلمة "نحو" من "ال فعل نحا" و تعني القصد و الطريق قال أبو البقاء العكبي (616-538 هـ): «اعلم أن النحو في الأصل مصدر (نحا [ينحو] إذا قصد)»². و يعرف ابن جني النحو بقوله: «هو انتقام سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب و غيره كالثنية و الجمع و التحبير و التكسير و الإضافة و النسب و التركيب و غير ذلك»³

و يبيدو للدارس أن هذا النص التعريفي يقدم للنحو مفهوما يمترز فيه بالإعراب بالضرب الثاني من المعرفة النحوية أي التصريف مع التمثل لما يتكون منه علم النحو. أما قوله: "وغير ذلك" فهي عبارة تصور ما يمكن أن ينظر فيه علم النحو ويشمله من مواضع⁴

و يعرف الباحث اللساني عبد الرحمن الحاج صالح النحو فيقول: «النحو العربي هو قبل كل شيء أصول أو قوانين تضبط التراكيب السليمة»⁵ أما عبد السلام المودي فيرى أن للنحو مفهوما مزدوجا فهو «يعني في نفس الوقت جملة النواميس الحفية المحركة للظاهرة اللغوية كما يعني عملية نقسير الإنسان لنظام اللغة»⁶

بعد النحو من مستويات النظام اللساني و هو وسيلة تعين الدارس على معرفة القواعد للاستناد إليها في ممارسة اللغة؛ و معنى ذلك أن النحو يدرس في ظلّ اللغة و هو يقوم على مستويين:

- تدريس النحو لتعليم اللغة ذاتها.
- تدريس النحو للتعریف بالقواعد اللغوية.

و الذي يهمّنا في هذا المجال هو تدريس النحو من أجل الإحاطة بالقواعد اللغوية و هو مجال الدراسة التخصصية لطالب اللغة العربية عموما؛ فهو ملزم بدراسة النحو لفهم اللغة وإدراك خصائص تركيبها ، و درس النحو

¹- زهيرة قروي: المركبات المعرفية للفظ النحو في خلفيات التفكير العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد 30، 2011، ص.154.

²- أبو البقاء العكبي: اللباب في علل البناء و الإعراب، تح غازي مختار طليمات، دار الفكر العربي المعاصر، بيروت- لبنان، ط1، 1995، ج 1، ص40.

³- ابن جني أبو الفتح عشان: الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 1995، ج 1، ص 34.

⁴- زهيرة قروي: المصطلحات الصوتية و النحوية عند البصريين في ضوء اللسانيات الحديثة، أطروحة دكتوراه دولة في اللسانيات، جامعة 01 قسنطينة، الجزائر، 2007، ص 243.

⁵- الحاج صالح (عبد الرحمن) : المدرسة الخليلية الحديثة و مشاكل علاج العربية بالحاسوب، محاضرة مرقونة - أقيمت بملتقى اللسانيات بكلية التربية بجامعة الرباط / المغرب /، 1990، ص 21.

⁶- عبد السلام المودي: الفكر العربي و الألسنية، اللسانيات و اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية / تونس /، ع(04)، 1985، ص 14.

بدوره يرتكز على القواعد التي تحكم إليها أساليب اللغة لأن الألفاظ مغلفة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها.⁷

إن لغة من اللغات لا تتطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في اسمائها و أفعالها و حروفها ، و تأليفها و تقديمها و تأخيرها و استعارتها و تحقيقها ، و تشديدها و تخفيضها ، و سعتها و ضيقها ، و نظمها و نثرها و سجعها ، و وزنها و ميلها ، و غير ذلك مما يطول ذكره ، و ما أظن أحدا يدفع هذا الحكم أو يشك في صوابه ممن يرجع إلى مسكة من عقل أو نصيب من إنصاف فمن أين يجب أن تثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف - وصف المتنق - بل أنت إلى تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرف المعاني اليونانية ، على أن المعاني لا تكون يونانية و لا هندية ، كما أن اللغات تكون فارسية و عربية و تركية .⁸

لكن بعض النحاة و منهم أبي سعيد السيرافي قد افتقعوا بما ترجم لهم من هذا الوصف المتنق و المعاني فأفخوموا في دراسة اللغة ما ليس منها من العقلية و المنطقية. وقد نمت محابية لهذا الوصف المصطلحات التي تدلّ بمعناها على الكثرة و هي : القياس و المطرد و الغالب و الأكثر و المتبادر ، وأخرى تدلّ على معاني القليل ، و الأقلّ و الشاذ و النادر و المسموع.

ليس هناك مدرستان متمايزنان من ناحية التفكير اللغوي و إنما هناك مدرسة بالبصرة تنتقد الشعر المسموع بكل احتراس ، و ترفض منه ما لا يتاسب مع المستوى المقبول على حين يقبل الكوفيون كلّ ما سمعوا ، و يقال إنهم استعملوا كثيراً من الشعر المنحول، و يذهب البعض الآخر إلى أنّ البصريين ينتصرون للقياس بينما يحتكم الكوفيون للسماع بحيث يقيمون القاعدة على الشاهد الواحد.

و قد أرست المدرستان مركباتاً تصيلية لتصنيف الظاهرة النحوية باعتبار المعتقدات الفكرية التي تبنّاها أنتمها و مشايخها و تمثلت هذه الأخيرة في :

أ - التحديد الزمكاني للنصوص اللغوية : حدد النحاة فترة الاستشهاد اللغوي الصحيح بحوالي منتصف القرن الثاني الهجري بالنسبة للحضر ، و أواخر القرن الرابع الهجري بالنسبة للblade ، و جعلوا الاستشهاد الصحيح من الوجهة النظرية محصوراً في القرآن الكريم و الحديث الشريف ، و شعر العرب و نثرهم كما انتخبوا بعض القبائل التي يُعتَدّ بأقوالها من حيث قيمة الاستشهاد وهو لاء هم قيس و تميم و أسد من اتكل عليهم في الغريب و الإعراب و التصريف ثم هذيل و بعض كانة و بعض الطائين.⁹

يقرّ الدارسون بأنّ نحو كلّ لغة من اللغات يحتوي قدرًا يزيد أو ينقص من الأسماء و الأفعال الشاذة و تسمى أيضًا بالصيغ القوية في مقابل الصيغ الضعيفة أو العلية التي تستسلم للتنظيم الذي يفرضه القياس و تدين بمقلومتها إلى شيوخ استعمالها الذي يُبقي عليها حيّة في الذهن لا يطيق لها تغييراً ، و قد اجتهد اللغويون العرب في تكريس هذه السمة و ترسّيخها في العقول و في هذا المقام يروي أبو حيان التوحيدى أنّ أعرابياً وقف على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو و ما يدخل معه ، فحار و عجب و أطرق و وسوس ، فقال له الأخفش ، ما تسمع يا أخا العرب ، فقال : أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا¹⁰.

7 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 23-24

8 - أبو حيان التوحيدى، الإمتناع و المؤانسة ، ج 1 ، ص 115-116 .

- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،اقتراح في علم أصول النحو، تج محمد حسن إسماعيل الشافعى،دار الكتب العلمية ،بيروت- لبنان، ط 1، 1998، ص 23-22.

- علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى ،الإمتناع و المؤانسة ، علق عليه محمد الفاضلى ،دار الأبحاث و النشر و التوزيع /الجزائر 2007 ج 232،2 ص:139.

و ليس حتماً أن يكون أبو الأسود سمى الأبواب التي عالجها تعجبـا ، أو استفهامـا ، أو عطفـا ، أو جمع مذكـر .. أو شيئاً من هذا ، و لكنه درس الموضوع دراسة أولـية و سماه ما شاء أن يسمـيه ، و يجوز أن يكون بهذه الأسماء كما يجوز أن يكون بغيرها ؛ ثم مات سنة 89هـ و ترك محاولاته الأولى في علم النحو بين يدي تلاميذه الذين توفـروا عليهـا ، و درسوها و تقوـوها ، و زادوا فيهاـ و كان هوـ و من بعدهـ يجتهدونـ ، فـأحسـنـوا أشيـاءـ ، و انبـهـمتـ عليهمـ أشيـاءـ ؛ و ما كانـ يـبـنـهمـ علىـ بعضـهمـ لاـ يـبـنـهمـ علىـ غيرـهمـ الآـنـ . قالـ الفـراءـ : " مـاتـ الـكـسـائـيـ وـ هـوـ لـاـ يـحـسـنـ حـدـ نـعـ وـ بـئـسـ ، وـ أـنـ المـفـتوـحةـ . وـ لـمـ يـكـنـ الـخـلـيلـ يـحـسـنـ النـدـاءـ ، وـ لـاـ سـيـوـيـهـ يـدـريـ حـدـ التـعـجـبـ" ¹¹ . وـ لـعـلـ هـذـاـ القـوـلـ يـشـيرـ بشـيءـ منـ التـلـيمـيـحـ دونـ التـصـرـيـحـ إـلـىـ أـنـ أـلـمـةـ النـحـوـ قـدـيـماـ كـانـواـ مـنـقـاوـيـنـ فـيـ قـدـرـاتـهـ الـعـرـفـيـةـ وـ الـفـكـرـيـةـ وـ الـمـنـهـجـيـةـ.

جـاءـ فـيـ مـقـدـمةـ كـتـابـ الـإـنـصـافـ " إـنـ مـذـهـبـ الـكـوـفـيـنـ الـقـيـاسـ عـلـىـ الشـاذـ ، وـ مـذـهـبـ الـبـصـرـيـنـ الـتـأـوـيـلـاتـ الـبعـيـدةـ الـتـيـ خـالـفـهـاـ الـظـاهـرـ ؛ وـ أـنـقـواـ عـلـىـ أـنـ الـبـصـرـيـنـ أـصـحـ قـيـاسـاـ لـأـنـهـمـ لـاـ يـلـقـنـتوـنـ إـلـىـ كـلـ مـسـمـوـعـ ، وـ لـاـ يـقـيـسـوـنـ عـلـىـ الشـاذـ ، وـ الـكـوـفـيـوـنـ أـوـسـعـ رـوـاـيـةـ" ¹²

وـ جـاءـ فـيـ شـرـحـ الـمـفـصـلـ : الـكـوـفـيـوـنـ لـوـ سـمـعـواـ بـيـتاـ وـاحـداـ فـيـهـ جـواـزـ شـيءـ مـخـالـفـ لـلـأـصـوـلـ جـعلـوهـ أـصـلاـ ، وـ بـوـبـيـوـاـ عـلـيـهـ ، بـخـلـافـ الـبـصـرـيـيـنـ ، بلـ إـنـ الـكـوـفـيـيـنـ كـانـواـ يـسـتـبـطـونـ بـعـضـ قـوـاعـدـهـمـ بـالـقـيـاسـ النـظـريـ منـ غـيرـ حاجـةـ إـلـىـ شـاهـدـ ؛ بلـ كـانـواـ إـذـاـ رـأـواـ لـلـشـيءـ الـواـحـدـ عـدـةـ صـورـ وـضـعـواـ لـكـلـ صـورـةـ قـاءـدةـ . وـ لـذـكـرـ كـثـرـ الـخـلـافـ بـيـنـ الـمـدـرـسـتـينـ" ¹³ تـمـسـكـ الـبـصـرـيـيـنـ بـصـوـابـ ماـ ذـهـبـواـ إـلـيـهـ ، وـ تـخـطـئـةـ ماـ عـادـهـ وـ لـوـ وـرـدـ تـأـيـيدـ لـهـ مـنـ الشـوـاهـدـ الـعـرـبـيـةـ ، بلـ وـ لـوـ كـانـ الـمـتـكـلـمـ عـرـبـيـاـ فـصـيـحاـ يـحـتـجـ بـكـلامـهـ . قالـ رـجـلـ لـأـبـيـ عـمـروـ بـنـ الـعـلـاءـ : أـخـبـرـنـيـ عـمـاـ وـضـعـتـ مـاـ سـمـيـتـ عـرـبـيـةـ ، أـيـدـخـلـ فـيـهـ كـلـامـ الـعـرـبـ ؟ـ قـالـ : لـاـ . قـالـ : كـيـفـ تـصـنـعـ فـيـمـاـ خـالـفـتـكـ فـيـهـ الـعـرـبـ وـ هـمـ حـجـةـ ؟ـ قـالـ : أـحـمـلـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ ، وـ أـسـمـيـ مـاـ خـالـفـيـ لـغـاتـ . وـ مـنـ مـظـاهـرـ الـخـلـافـ نـسـوـقـ الـمـثـالـ الـأـتـيـ : نـدـاءـ مـاـ فـيـهـ أـلـ . رـأـيـ الـبـصـرـيـيـنـ : لـاـ يـجـوزـ نـدـاءـ مـاـ فـيـهـ أـلـ .

الـسـبـبـ : الـأـلـ وـ الـلـامـ تـفـيـدـ التـعـرـيفـ وـ يـاـ حـرـفـ نـدـاءـ يـفـيـدـ التـعـرـيفـ أـيـضاـ . وـ لـاـ يـصـحـ اـجـتـمـاعـ مـعـرـفـيـنـ عـلـىـ مـعـرـفـ وـاحـدـ ، يـاـ زـيـدـ؛ بـلـ يـعـرـىـ عـنـ تـعـرـيفـ الـعـلـمـيـةـ ، وـ يـعـرـفـ بـالـنـدـاءـ لـلـلـاـ يـجـمـعـ بـيـنـ تـعـرـيفـ النـدـاءـ وـ تـعـرـيفـ الـعـلـمـيـةـ ؛ وـ إـذـ لـمـ يـجـزـ الـجـمـعـ بـيـنـ تـعـرـيفـ الـعـلـمـيـةـ وـ تـعـرـيفـ النـدـاءـ لـمـ يـجـزـ الـجـمـعـ بـيـنـ تـعـرـيفـ النـدـاءـ وـ تـعـرـيفـ الـأـلـ وـ الـلـامـ ، بلـ هـذـاـ أـلـوـيـ بـعـدـ الـجـواـزـ ؛ لـأـنـ تـعـرـيفـ النـدـاءـ بـعـلـامـةـ لـفـظـيـةـ ، وـ تـعـرـيفـ الـأـلـ وـ الـلـامـ بـعـلـامـةـ لـفـظـيـةـ ، وـ إـذـ مـنـعـ اـجـتـمـاعـ مـعـرـفـيـنـ بـعـلـامـتـينـ إـحـدـاهـمـاـ لـفـظـيـةـ وـ هـيـ النـدـاءـ وـ الـأـخـرـىـ غـيرـ لـفـظـيـةـ وـ هـيـ الـعـلـمـيـةـ - فـاجـتـمـاعـ مـعـرـفـيـنـ لـفـظـيـنـ أـلـوـيـ بـالـمـنـعـ .

رـأـيـ الـكـوـفـيـيـنـ" ¹⁴ : يـجـوزـ نـدـاءـ مـاـ فـيـهـ الـأـلـ وـ الـلـامـ ؛ـ نـحـوـ يـاـ الرـجـلـ ، يـاـ الـغـلامـ السـبـبـ : سـمـاعـ ، وـ قـيـاسـ ؛ـ السـمـاعـ : وـرـدـ فـيـ كـلـامـ الـعـرـبـ قـوـلـ الشـاعـرـ :

فـيـ الـغـلامـ الـلـذـانـ فـرـاـ

إـيـاكـمـاـ أـنـ تـكـسـيـانـيـ شـرـاـ

وـ قـوـلـ الـآـخـرـ :

فـدـيـتـكـ يـاـ الـتـيـ تـيـمـتـ قـلـبـيـ

وـ أـنـتـ بـخـيـلـةـ بـالـوـدـ عـنـيـ

- محمدـ أـحـمـدـ بـرـانـقـ ، النـحـوـ الـمـنـهـجـيـ ، مـطـبـعـةـ لـجـنـةـ الـبـيـانـ الـعـرـبـيـ ، صـ 24
- يـنـظـرـ الـإـنـصـافـ فـيـ مـسـائـلـ الـخـلـافـ بـيـنـ الـنـحـوـيـنـ الـبـصـرـيـيـنـ وـ الـكـوـفـيـيـنـ ، أبوـ الـبـرـكـاتـ الـأـبـنـيـاريـ ، تـحـ:ـ مـحمدـ مـحـيـيـ الدـينـ عـبـدـ الـحـمـيدـ ، طـ 4ـ ، دـارـ إـحـيـاءـ التـرـاثـ الـعـرـبـيـ 1961ـمـ، صـ؟ـ ¹²

- يـنـظـرـ إـيـنـ يـعـيشـ مـوـفـقـ الدـينـ ، شـرـحـ الـمـفـصـلـ ، تـحـ:ـ الـدـكـتـورـ فـغـرـ الدـينـ قـبـلـةـ ، طـ 1ـ ، الـمـكـتبـةـ الـعـرـبـيـةـ ، حـلـبـ سـوـرـيـاـ 1983ـمـ، صـ؟ـ ¹³
- يـنـظـرـ النـحـوـ الـمـنـهـجـيـ ، مـحمدـ أـحـمـدـ بـرـانـقـ ، مـطـبـعـةـ لـجـنـةـ الـبـيـانـ الـعـرـبـيـ ، صـ 33ـ ¹⁴

القياس: يدل على صحة ذلك أنهم أجمعوا على أنه يقال في الدعاء :
يا الله ، اغفر لنا و ارحمنا .

رد البصريين :

أ- قولهم : فيها الغلامين

مردود ؛ لأن التقدير : في أيها الغلامين

ب - قولهم : فديتك يا التي تيمت.....

مردود ؛ لأن قليل ، و يجيء في الشعر خاصة ، فلا حجّة فيه . وإن كان سهل ذلك لزوم الألف و اللام في التي فهي لا تفصل عنها ، و لا سبيل إلى حذفها ، فنزلت منزلة بعض الحروف الأصلية من الكلمة ، فسهل دخول حرف النداء عليها.

ج - و أما قولهم : يا الله...

مردود؛ لأن الألف و اللام عوض عن همزة إله ، فنزل منزلة حرف من نفس الكلمة ، فجاز أن يدخل عليه حرف النداء . و لأن هذه الكلمة كثُر استعمالها فلا يقاس عليها.

ب - نظرية العامل: فرض النحاة أن حركات الإعراب آثار، و هذه الآثار لا بد لها من مؤثرات . ثم بحثوا في هذه المؤثرات. فعثروا عليها ، و سموها عوامل ، و وجدوا أن العوامل التي تعمل النصب و الجزم و الجر عوامل لفظية ، و أن التي تعمل الرفع عوامل لفظية أو معنوية . و اهتم النحاة بالعوامل اهتماما كبيرا ، و قسموا أبواب النحو متاثرين بهذه العوامل ثم عنووا كل باب بعنوان يفيد أن العوامل هي الأساس التي تدور حولها الدراسة¹⁵ .

إن نظرية العامل هي التي اضطررت النحاة اضطرارا إلى أن يحذفوا و يقتربوا ، و يضمروا إضمارا جائزا أو واجبا و قد ركبو من أجل فرضهم العامل في كثير من المسائل مركبا شططا نوردا لذلك أمثلة بسيطة:
الكتاب في الحقيقة .

العصفورة فوق الشجرة.

فالجار و المجرور في الجملة الأولى، و الظرف في الجملة الثانية – تم بهما الكلام ، و لكن النحاة يفرضون لكل جار و مجرور ، و لكل ظرف متعلقا من فعل أو مشتق ، فيتكلّفون ذلك من غير حاجة إليه؛ و يظهر ذلك في خبر المبدأ ، و الصفة ، و الحال . مع أن العرب نطقوا بهذه العبارات و فهموا المراد منها فيما صحّحا سليما دون حاجة إلى تقدير متعلق و لكن فرض النحاة أن الجار و المجرور و الظرف يجب أن يعمل فيما عامل ، و لما لم يوجدوه في مثل هذه الأساليب توهموه و قدروه ، فعقدوا الكلام ، و أرهقوا أنفسهم ، و أرهقا المتعلمين من بعدهم و كان في فهم التعبير اللغوي غنى عن كل تقدير.

العامل الذي لا عمل له إطلاقا ، و لكن وجوده ضروري للتمهيد للعامل الحقيقي ، و العامل الحقيقي هو المتكلّم ، و قد وضح هذا الرأي ابن جني إذ يقول " ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جفرا فإن ضرب لم تعمل في الحقيقة شيئاً ، و هل تحصل من قولك ضرب إلا على اللفظ بالضاد و الراء و الباء على صورة فعل فهذا هو الصوت ، و الصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا إليه الفعل – فاما في الحقيقة و محصول الحديث فالعمل من الرفع و النصب و الجر و الجزم إنما هو للمتكلّم نفسه لا لشيء غيره ، و إنما قالوا لفظي و معنوي ، لما ظهرت آثار فعل المتكلّم بمضامنة اللفظ للفظ أو باشتمال المعنى على اللفظ "¹⁶

¹⁵ - المرجع نفسه: ص35

- محمد عيد أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ط4، عالم الكتب ، القاهرة/ مصر ص200¹⁶

لقد كان لولاء النحويين في مختلف العصور الهجرية التي أرّخت للغة أثر قويّ في صيورة الدرس اللغوي عموماً و الدرس النحوي تحديداً، خاصةً إذا علمنا أنّ هذا الولاء انصبّ الاهتمام من خاله على كتاب إمام النحويين وذلك لترسيخ المرجعية العربية للتراث النحوي؛ يقول أحمد أمين: "إنّ هؤلاء النحويين كلّهم كانوا يدورون في فلك سيبويه فإنّ اجتهد أحد كابن مالك و أبي حيان فكاذبي نسميه في الفقه اجتهد مذهب لا اجتهداداً مطلقاً ، فقد وضع الخليل و تلميذه سيبويه بناءً في النحو قويّ الدعائم لم يسهل هزّه و لا نقضه ، إنّما الذي خرج و اجتهد اجتهاداً مطلقاً هو ابن مضاء الأندلسى القرطبي¹⁷"

لقد كشف لنا ابن مضاء من البداية طريقه الذي اختاره في النحو من بين النحاة ، و هو طريق الرواد المتمردين على التبعية ، المתחمسين لاكتشاف جديد مجهول ، و كأنما كان يسمع من وراء السنين صوت إمامه في المذهب الظاهري داود بن علي ؛ إذ يقول : قبح على من أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها و يمشي معتمداً على غيره ، فقد استحال تلك الشمعة في خيال ابن مضاء منارة يبنيه في طريق الحقيقة ، حيث يرسل شعاعه الوهاج للخيالي التائهي في فلسفات النحو الذهنية و مشاكله المعقّدة¹⁸ .

لقد صدق القائل ما على الناس شيء أضرّ من قولهم : " ما ترك الأول للآخر شيئاً ذلك أضرّ الأمور لأنّه يخنق الفكر ، و يوقف النطور أّما التبعية الواقعية ، تبعية الإفادة لانطلاق و الفهم للمعرفة و تحصيل الزاد لرحلة الكشف ، فتلك هي التبعية المطلوبة تطوير لا جمود ، تقدم لا وقوف ، تجديد بعد فهم ، و ذلك الأخير هو الذي سلكه صاحبنا محذراً من التبعية العمياء.¹⁹

في هذا الصدد يجيب ابن مضاء فيما نقله عن ابن جني في خصائصه من أنّ النحو يصحّ فيه الاجتهد فهو علم منتزع من استقراء اللغة ومن حقّ من يرى فيه رأياً صحيحاً أن يقوله ، فاللغة لا تغير ، و لكن الذي يغيّر هو ما يستخلصه الباحث من اللغة .

الاجتهد في النحو مباح إذن ، لكنّها ليست إباحة مطلقة بل لا بدّ أن يستكمل الباحث عدّته و يأخذ أهنته ليدخل هذا الميدان الجريء ، و ينقل عن ابن جني رأيه في ذلك من أنه لا بدّ لمن يجتهد من أن يتقّهم النحو إقاناً و يثبته عرفاً ، و لا يخلد إلى سائح خاطره و لا إلى نزوة من نزوات تفكيره فإنّ وصل لشيء منه قدّمه للناس في تواضع غير معازٍ به و لا غاضبٍ من السلف رحمهم الله²⁰

إنّ المتّصفُ بتاريخ الدراسات النحوية ليلاحظ تلك الدّعوات التجديدية التي رفع لواءها مجموعة من اللغويين و النحويين منذ العصور الهجرية الأولى و بقيت تتوالى إلى يومنا هذا ؛ و في هذا المقام لا يسعنا إلا أن ننتبه و لو بعجاله تلك المحاولات التي أسهم بها هؤلاء المجددون مبرزين أهمية الدراسات النحوية في إطار المقاربات العلمية الحديثة و ما أفرزته من مناهج حيث يحتلّ التراث النحوي مكانة متميزة في الثقافة العربية و لذلك مثل موضوع إصلاح النحو و تيسيره مشغلاً بارزاً من مشاغل المتفقين العرب في العصر الحديث و المعاصر ، لاسيما بعد النتائج الإيجابية التي حققتها الدراسات اللغوية الحديثة على صعيد البحث اللساني النظري و التطبيقي . و لقد بحث في هذا الموضوع و كتب فيه عدد كبير من العلماء و اللغويين و التربويين و عقدت من أجله العديد من الندوات و المؤتمرات في شتى أنحاء العالم العربي؛ و رغم ذلك ظلّ مفهوم التيسير يطرح الكثير من الإشكالات و يثير الكثير من التساؤلات و وخاصة عند ناقدى التراث الذين يرون أن بالنحو العربي عيوباً تجعل إصلاحه و إعادة النظر فيه ضرورة ملحة و مهمة أساسية

- - أ.حمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج 3 / ص 95.¹⁷

- محمد عبد أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ص 46¹⁸

- محمد عيد: أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث ، ص 47.¹⁹

- ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة ، ص 94. أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص: تج: محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي بيروت، ج 1، ص 19.²⁰

يقتضيها العصر و تتطلبه مستلزمات النهضة العربية التي صار المتعلم العربي فيها يتلقى اللغة الفصيحة صناعة و تعلما لا طبعا و اكتسابا . حيث أرجع بعضهم ذلك إلى صعوبة القواعد النحوية و تعقيدها في المجال التربوي التعليمي لأن النحو العربي - كما يقول حسن عون - «يتناول مقولات عقلية تتمكن وراء الاستعمال اللغوي وهي مقولات بعيدة عن الأمور المحسنة المعاينة مما أسبغ عليه بعض الجفاف الذي يحتم على من يتعلمها أن يكون مزودا بقدرة خاصة من الإدراك و سلوكا رصينا من الاستقراء»²¹ و يقول حسني عبد الباري: «البنية النحوية على الحقيقة هي مجموعة من التجريدات العقلية صرفا و تركيبا و هذه التجريدات هي التي صبغت النحو بالجفاف و سمته بالصعب»²²؛ إن هذا الوضع الفرق الانطباعي التراكمي قد أفرز ظاهرة خطيرة لا تهدى الجانب التعليمي من العربية فحسب و إنما الوجود اللغوي في العالم العربي الحديث²³.

لم يكن الشعور بصعوبة القواعد النحوية وليد هذا العصر ، بل قد أحسه النحاة و تتبّعوا إلى ضرورة التيسير ، فكان من نتيجة ذلك أن أَفْوَا قديما مختصرات كثيرة في النحو بدأت بالكسائي الذي أَلْفَ كتاباً للمبتدئين أسماه "المختصر الصغير" ، ثم توالت المختصرات كمختصر أبي حيان الأندلسى و أبي علي الفارسي و غيرهم²⁴؛ و لم تكن محاولة ابن مالك في التسهيل و الزجاجي في مختصره الذي سمّاه "الجمل في النحو" و الزمخشري في كتابه "المفصل في علم العربية" و غير ذلك من الملخصات و المختصرات إلا محاولات لتيسير المادة النحوية و تذليل صعابها. كما أحس غير المشتغلين بالنحو من الأقدمين بفداحة الأمر ، فألف "خلف بن حيان الأحمر البصري" رسالة أسمها "مقدمة في النحو" حاول فيها تيسير النحو على المتعلمين و تخليصه من الصعوبات الكامنة في مسائله و قواعده ليس تغنى المتعلم عن التطويل و التعليل في قواعد النحو²⁵.

أما ابن مضاء فقد ثار على النحو ثورة عنيفة داعيا إلى إلغاء القانون العامل الذي فتح باب التقدير و التأويل في النحو العربي ، و كان هدفه تيسير النحو و تقييته من الفلسفات الذهنية²⁶.

على هذا الأساس مرّ النحو العربي بعدة محاولات للإصلاح من منهجه بغية تيسيره؛ و هذه المحاولات كانت منذ أمد بعيد.

استنادا لما سبق اتضح لنا أن الشكاوى من النحو العربي لم ترتبط بظهور اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة بل إن التذمر و الانزعاج من صعوبة المنظومة النحوية و من جفاف أسلوب النحاة و طرائقهم في التعاطي مع قضائيا اللغة - كما يقول مصطفى غلavan- قديم قدم النحو نفسه²⁷؛ و لهذا فإن نظرية فاحصة لمقاربات التراث النحوي تُبيّن لنا أن الدراسات و البحوث التي أُنجزت لتيسير القواعد النحوية تشطر إلى قسمين كبيرين حسب اعتمادها أو عدم اعتمادها علم اللسانيات في نقد التراث النحوي.

²¹- حسن عون: نظور الدرس النحوي، معهد البحث و الدراسات العربية، القاهرة، 1970، ص.84.

²²- حسني عبد الباري عصر: الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2000، ص.299.

²³- ينظر نهاد الموسى: مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، ضمن سلسلة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية، الجامعة التونسية، 1981، عدد 5، 152.

²⁴- علي أحمد مذكر: تدريس فنون اللغة العربية، دار الشواوف للنشر و التوزيع، الرياض، 1991، ص 327.

²⁵- خاطر محمود رشدي و آخرون: طرق تدريس اللغة العربية و التربية الدينية في ضوء الاتجاهات التربوية الحديثة، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1983، ص.199.

²⁶- ينظر ابن مضاء: الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1982.

²⁷- مصطفى غلavan: اللسانيات العربية (أسئلة المنهج)، دار وردالأردنية للنشر و التوزيع، ط1، 2013، ص.133.

/ مقاربات التراث التي لا تنسب صراحة للسانيات

يمثل هذا النوع من القراءة للتراث التيارُ الذي انتقد النحو و منهجه محاولاً وضع بناءً جديداً للنحو العربي على شكل إصلاح و تيسير في التأليف النحوي مع تخليص الكتب النحوية من العبارات الغامضة و الاختلافات النحوية و إعادة صياغتها بأسلوب سهل واضح. جاءت المحاولة الأولى لعرض النحو العربي عرضاً مختلفاً على يد عالم من علماء الأزهر هو "رفاعة الطهطاوي" الذي ألف كتاباً أسماه "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية"²⁸. و هذا النوع من الكتب مازال يظهر، إلى يومنا هذا، بسميات و عنوانين مختلفتين مثل "النحو الواضح" و "النحو الميسر" و "النحو العصري" و هي كتب تدعى إلى التيسير و هي تُقدّم لطلاب المدارس و الجامعات لغاية تعليمية؛ و الذي يمكن قوله في هذا المجال أن هذه الكتب لا يتعذر الإصلاح فيها التغيير في التبويب و الأسلوب و لكنها لا تمس الجوهر أي لا تقترب من الأصول النظرية للتراث النحوي.

و ما ينبغي التنبيه إليه أن حركة الإصلاح هذه لم تقف عند حدود إعادة التبويب و تبسيط إطار المعالجة النحوية بل واكبتها حركة أخرى نادت بإحياء النحو عن طريق إعادة النظر في أصوله و مبادئه؛ و من أظهر ممثليها إبراهيم مصطفى و كتابه "إحياء النحو" الذي يعدّ بحق أول مقاربة نقدية شاملة للتراث النحوي، حيث يلتقي إبراهيم مصطفى مع ابن مضاء في دعوته التيسيرية لإلغاء التقديرات العاملية محاولاً وضع بناءً جديداً للنحو العربي؛ و في رأيه أن النحاة حين قصرروا النحو على البحث في أواخر الكلم قد أخطأوا إلى العربية من وجهين²⁹:

1. حين حددوا النحو حرموا أنفسهم و حرمونا من الإطلاع على كثير من أسرار العربية و أساليبها المتعددة و مقدرتها في التعبير فبقيت هذه الأساليب مجهرة.
2. رسموا للنحو طريقة لفظياً، فاهموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع و نصب و جر و لم يشيروا إلى ما يتبع كل وجه من أثر في رسم المعنى و تصويره.

أما مهدي المخزومي فإنه يلتقي مع أستاذه إبراهيم مصطفى في موقفه السلبي إزاء النحو و الدعوة إلى إعادة قواعد التوجيه في النظرية النحوية العربية القديمة أليس هو القائل: «ليس من وظيفة النحو الذي يريد أن يعالج نحواً للغة من اللغات أن يفرض على المتكلمين قاعدة أو يخطئ لهم أسلوباً. لأن النحو... عارضة لغوية تخضع لما تخضع له اللغة من عوامل الحياة و التطور... و النحو الحق هو الذي يجري وراء اللغة يتبع مسيرتها و يفقه أسلوبها»³⁰؛ إن هذه المحاولات و التي تتخذ إشكالية إعادة توجيه القواعد النحوية كمبدأً أساسياً في تحديث طرق تعليم اللغة العربية و جدت صدى عند كثير من الباحثين و اللغويين المحدثين أمثال أحمد عبد العظيم عبد الغني الذي يقول: «من يعايش النحاة يدرك أن من مأثور صنعتهم الحكم على الشيء الواحد في الموقع الواحد بالإعراب و البناء أو التعريف و التكير أو الإسمية و الحرافية... و يقود منطق الأمور إلى أن القواعد النحوية التي خلفها لنا أسلافنا من النحاة تفقد خصائص الصناعة المنضبطة... و تختلف فيها ضوابط العلم»³¹ و يقول علي أحمد مذكر: «و النتيجة أن النحو بالشكل الذي يؤلف عليه و بالطريقة التي يدرس بها قد أصبح علماً عقيناً، يدرسه الرجل و يشتغل به سنين طوالاً، ثم لا يخرج منه إلى شيء من إقامة اللسان ، و الفهم عن العرب»³² و يقول إسماعيل مظہر: «...و ما القيد التي اخترعها النحاة إلا وسائل تذرعوا بها إلى حفظ كيان اللغة، و لا شك أن الوسائل تتغير بتغيير الأزمان»³³

²⁸- محمد عبد الرحمن الرمالى: العربية و الوظائف النحوية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريط، مصر، 1996، ص.13.

²⁹- إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1937، ص.43.

³⁰- مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد و توجيه، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، ط.2، 1986، ص.19.

³¹- أحمد عبد العظيم عبد الغني: القاعدة النحوية (دراسة نقدية تحليلية)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1990، ص.11.

³²- تدرس فنون اللغة العربية من 324.

³³- إسماعيل مظہر: تجدید العربية (حيث تصبح وافية بمطالب العلوم و الفنون)، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت، ص.5.

غير أن هذه المحاولات لم تسهم بشكل مباشر في حلّ صعوبات النحو على دارسيه؛ إذ هي عبارة عن دعوات لنقد مفاهيم النحو الإجرائية خاصة نظام العوامل الذي اعتبرته مسلمات ماقبليّة فُرِضت على الدرس النحوي. و هي فضلاً عن ذلك ليس لها تصور واضح عما تقتضيه التطبيقات التربوية من مبادئ أساسية في صناعة التعليم؛ فمحاولات تيسير النحو لم تفعل شيئاً يعيد للنحو العربي حيويته بحيث تحبب للمتعلمين درسه و للمعلمين تدریسه؛ فهي مجرد قضايا بحثية حاول مؤلفوها الوصول إلى حلول مناسبة.

2. مقاربات التراث التي تنسب للسانيات : لم تظهر المقاربات الحقيقية للتراص إلا في الثلث الثاني من القرن العشرين و هي تُمثل إشكالية هامة مازالت تشغّل تفكير عدد كبير من الباحثين و اللغويين في العالم العربي³⁴، حيث ارتبطت هذه المقاربات بتجديد النظرية النحوية لتصبح نظرية معاصرة توّاكب التغيرات و التطورات اللسانية و مناهجها الحديثة. و لهذا بات من القضايا الأساسية التي تمحور حولها البحث اللساني العربي المعاصر علاقة النحو بالنظريات اللسانية الحديثة.

و على هذا الأساس أُعيد فتح باب النحو، بعد أن أغلق باب التععيد في القرن الرابع الهجري، من أجل إخضاع التراث اللغوي العربي للفحص اللساني المعاصر حتى يتم تطويقه لخدمة أهداف الحداثة. و نتج عن هذا الإخضاع نظريات جديدة أعادت بلورة التراث وفق نظام جديد يستند إلى المناهج اللسانية الحديثة. و السؤال الذي يجب طرحه في هذا المجال هو: ما علاقة النحو باللسانيات؟

علاقة المنظومة النحوية باللسانيات : تُعد العلاقة بين النحو العربي و اللسانيات من القضايا الأساسية التي أثارت انتباها الفكر اللساني العربي الحديث؛ حيث أكدّ المهتمون باللغة العربية على ضرورة دراسة اللغة العربية دراسة جديدة تستمد إطارها و مقاييس البحث فيها باعتماد المنهج اللغوي الحديث. يقول أحد اللغويين: « علينا أن نعمل على تجديد النحو لأن نستخدم في بحث اللغة كل الوسائل العلمية التي تمكن من درس اللغة و فقها و كشف أسرارها كما فعل المقدمون»³⁵. و تتوّزع آراء اللسانيين العرب تجاه التعامل مع اللسانيات و توظيفها إلى طائفتين³⁶:

- طائفة يدعى أصحابها إلى التراث اللغوي قائلين إنه لا يمكن قيام أي حركة لسانية حديثة يريدها العرب في التاريخ الحديث إلا إذا استلهمت أعمالها و مناهجها من النبع الأصلي لهذا التراث اللغوي بأبعاده الصوتية و النحوية و الدلالية.

- أما الطائفة الثانية فتضم المؤيدين للسانيات باعتبارها علماً قائماً بذاته مستقلاً كلياً عن التراث اللغوي العربي، و يدعى هؤلاء في نظر مازن الوعر «أن فترة التراث اللغوي العربي و مناهجه هي فترة تاريخية قد انتهت و ينبغي علينا أن ندرسها ضمن إطارها التاريخي فقط»³⁷ من حق متبّع هذه المفاهيم اللسانية الحديثة في علاقتها بالنظرية النحوية القديمة أن يتتسّأّل: كيف نعيد صوغ التراث و كيف استفاد تعليم اللغة العربية من النظريات اللسانية الحديثة و ما مدى فاعليتها في تقويم اللسان و الكتابة؟

بإمكاننا الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال التأكيد على ثلاثة اتجاهات معاصرة راقت نضح المناهج اللسانية الحديثة ، حيث ظهرت مشاريع نظريات نحوية معاصرة استوحي بعضها المنهج البنّوي و تمثل بعضها المنهج التوليدّي التحويلي و اتخذ بعضها الآخر المنهج الوظيفي إطاراً نظرياً له.

³⁴- عز الدين مجذوب: المنشال النحوي العربي (قراءة لسانية جديدة)، دار محمد علي الحامي للنشر و التوزيع، الجمهورية التونسية، ط1، 1998، ص13.

³⁵- مصطفى غافان: اللسانيات العربية ص136.

³⁶- ينظر مازن الوعر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دار طлас للنشر و التوزيع، دمشق، ص353.

³⁷- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ص353.

فقد برزت ضمن الاتجاه الأول كتابات لسانية داعية إلى تحديث النحو و عصرنته انطلاقا من استئهام المنطقات الإجرائية للمنهج البنوي؛ من ذلك أفكار من سموا بالوصفين أمثال أنيس فريحة من خلال كتابه "في اللغة العربية و بعض مشكلاتها"، و ريمون طحان في مؤلفه "اللسانيات العربية"، و إبراهيم السامرائي في كتابه "الفعل زمانه و أبنيته" و شوقي ضيف في كتابه "تجديد النحو" الذي دعا فيه إلى تجديد النحو و تيسيره ملاحظا أن جميع البلاد العربية تشكو من أن الناشئة فيها لا تحسن النطق بالعربية نظرا سليما، و رأى أن مرجع ذلك هو النحو الذي يرهق المتنقي بكثرة أبوابه و تفريعاته و صيغه الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي³⁸. أما تمام حسان فإنه يُعدّ صاحب أولى قراءة للتراث النحوي العربي من خلال اثنين من خلال تأليفه خصصهما لدراسة التراث و تقييمه و هما "اللغة العربية معناها و مبنها" ثم "الأصول دراسة في الأسس الإبستمولوجية للفكر اللغوي العربي" و بما حاولتان إصلاحيتان للنحو اللسانية في ضوء مناهج البحث اللغوي الوصفي أو مشروع قراءة للتراث اللغوي العربي من وجهة نظر الدراسات اللسانية الحديثة. يقول تمام حسان في تقادمه لكتاب "اللغة العربية معناها و مبنها": «ينبغي لهذا الكتاب أن يبدأ عهدا جديدا في فهم العربية الفصحى - مبنها و معناها - و أن يساعد على حسن الانتفاع به لهذا الجيل و ما بعده من أجيال»³⁹.

و في الاتجاه البنوي نفسه نجد الاتجاه المدافع عن النظرية النحوية القديمة الذي يرى أن أيّ محاولة لتأسيس أيّ نظرية نحوية ينبغي أن تتطبق من إعادة قراءة أعمال اللغويين القدامى؛ و من مؤلاء عبده الراجحي و وخاصة كتابه "النحو العربي و الدرس الحديث" و نهاد الموسى و كتابه "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث". و أخيراً محاولات عبد الرحمن الحاج صالح الهدافنة إلى تأسيس مدرسة خليلية حديثة تستلهم نظريتها من أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي و تلميذه سبيوه.

أما الاتجاه التوليدى التحويلي و أظهر ممثليه ميشال زكريا من خلال كتبه الرائدة في قراءة التراث النحوي في ضوء المدرسة التوليدية التحويلية نحو كتابه "الأنسنية التوليدية التحويلية و قواعد اللغة العربية" و كذا كتابه "الجملة البسيطة" ثم خليل عميرة و كتابه "في نحو اللغة العربية و تراكيبها" انتهاءً بعد القادر الفاسي الفهري الذي يشكل نموذجاً متميزاً في اللسانيات العربية المعاصرة، من حيث إن كتاباته قد شكّلت نواة لمشروع نظرية مكتملة طورها الباحث في إطار النظرية التوليدية التحويلية و طوعها للنحو العربي بأصله و اقتداره؛ إذ كان للفاسي الفهري دور في تتميم الخطاب اللسانى العربي المعاصر و تطويره نحو الأفضل بنقده لخطاب اللسانيات العربية. و طبعي أن يشمل هذا التطوير تحليله اللغة العربية في إطار النظرية التوليدية التحويلية التي يتبنّاها. و رغم أن هذه النظرية تُعدّ من الأنحاء الجديدة المتطرورة التي لها مردودية علمية عالية⁴⁰ إلا أنها لا ترقى إلى مستوى نظرية النحو الوظيفي التي نادى بها أحمد المتوكّل و طوعها لدراسة النحو العربي لسبعينات القرن: أولئك أنها تقتصر في تحليلاتها على الجملة دون النص و الخطاب. و ثانيةً موقف الفاسي الفهري من التراث، فقد رفض الرجوع إلى تحليلات اللغويين و النحاة القدماء بدعوى «أن لا ضرورة منهجة أو منطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي و تصنيفاته و مفاهيمه لمعالجة مادة معينة»⁴¹.

نصل في الأخير إلى النظريات الوظيفية التي أطّرت البحث اللسانى و أهمها ثلاثة نظريات: النظرية الفريثية و النظرية النسقية لهاليدياي ثم نظرية النحو الوظيفي لصاحبها سيمون ديك و التي اتخذها الباحث اللسانى المغربي أحمد المتوكّل إطاراً نظرياً لأبحاثه و حاول من خلالها أن يرسم معلم نظرية وظيفية للنحو العربي اعتبارها هي البديل المقترن و الصالح لإعادة قراءة النظرية النحوية القديمة.

³⁸- شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي مع نهج تجديده، دار المعرفة، مصر، 1986، ص 21.

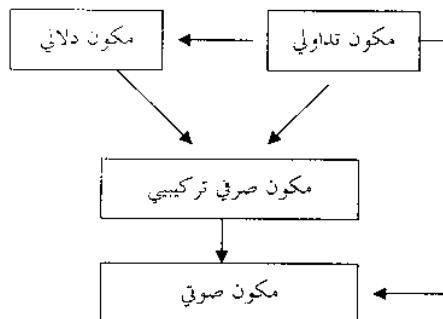
³⁹- تمام حسان: اللغة العربية معناها و مبنها، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 5.

⁴⁰- Anne abeillé : les nouvelles syntaxes, grammaires d'unification et analyse du français, paris, 1993, p 41.

⁴¹- عبد القادر الفاسي الفهري: اللسانيات و اللغة العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص 60.

نظريّة النحو الوظيفي

من أهم النظريات اللسانية ذات الوجهة الوظيفية التداولية نظرية "النحو الوظيفي" التي جاء بها اللسانى الهولندي "سيمون ديك" (simon dick) سنة 1978. و النحو الوظيفي هو النحو الذي لا يقتصر على الدور الذي تؤديه الكلمات أو العبارات في الجملة أي الوظائف التركيبية (أو النحوية: كالفاعل و المفعول...)، لأن هذه الوظائف لا تمثل إلا جزءاً من كل تفاعل مع وظائف مقامية (أو تبليغية: الوظائف الدلالية و التداولية)، بحيث تترابط الخصائص البنوية للعبارات اللغوية بالأغراض التبليغية التواصلية التي تستعمل هذه العبارات وسيلة لبلوغها. و يمكن توضيح ذلك على نحو الترسيم الآتية:



ولذلك يمكننا القول إن النحو الوظيفي بمثابة نظرية موسعة تكامل فيها النحو واللسانيات التداولية. على هذا الأساس يندرج النحو الوظيفي من حيث أهدافه المنهجية في زمرة الأحاء المؤسسة تداوليا التي تتخذ موضوعا لها خصائص اللسان الطبيعي البنوية في ارتباطها بالوظيفة التواصلية⁴².

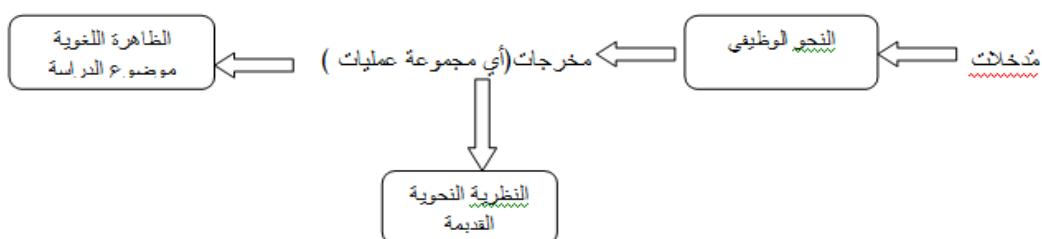
و ما يجب التبيّه إليه هنا أن نظرية النحو الوظيفي تعتمد في تحليلها الإجرائي للغة مبادئ أساسية يمكن إجمالها فيما يأتي⁴³:

- وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية هي التواصل
- موضوع درس اللسانى هو وصف القدرة التواصلية (la compétence communicative) للمتكلم السامع. و المقصود بالقدرة التواصلية أن يتمكن المتعلم من استعمال اللغة و توظيفها شفهيا و كتابيا في مختلف مجالات التواصل.
- النحو الوظيفي نظرية للتركيب و الدلالة منظور إليهما من وجهة نظر تداولية الكفايات التي يجب تحقيقها ثلاثة: كفاية نفسية و كفاية تداولية و كفاية نمطية.
- البنية التركيبية الصرفية هي نتيجة لتفاعل أنواع ثلاثة من الخصائص: الخصائص الدلالية و الخصائص التداولية و الخصائص التركيبية.
- العلاقة بين مكونات الجملة أنماط ثلاثة: علاقات دلالية (علاقات "المنفذ" و "المتفقّل" و "المستقبل" و "الزمان" و "المكان") و علاقات تركيبية (علاقة الفاعل و علاقة المفعول) و علاقات تداولية (علاقات "المبتداً" و "الذيل" و "المنادي" و "المحور" و "البؤرة").
- ترتبط اللغة بوظيفتها ارتباطا يجعل البنية انعكasa للوظيفة، و العلاقة القائمة بين البنية و الوظيفة تسたلزم رصد الفروق القائمة بين أنماط التراكيب تبعا لأنماط المقامة التي تنجز فيها.

⁴²- أحمد المتوكل: من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص.5.

⁴³- مصطفى غفان: اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر و الأسس النظرية و المنهجية، جامعة عين الشق، المغرب، ص258.

دخلت هذه النظرية العالم العربي أول ما دخلت عبر جامعة محمد الخامس بالرباط حيث شُكلت "مجموعة البحث في التداوليات واللسانيات الوظيفية"، وبفضل الباحثين المغاربة تأسى لمنحي الوظيفي أن يأخذ محله في البحث اللساني المغربي وقد تم ذلك عن طريق التعليم الجامعي والبحث الأكاديمي. فلقد شُرع في تدريس النحو الوظيفي في مستهل سنوات الثمانين بجامعة محمد الخامس بالرباط، ثم توسيع تدريسه، بفضل الأساتذة اللسانيين، ليشمل جامعات أخرى خارج الوطن المغربي كجامعات الجزائر التي أصبح النحو الوظيفي فيها مقررا رسميا من قبل وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. حيث أخذت نظرية النحو الوظيفي قسطا هاما من البحث الجامعي بالجزائر فهيئت رسائل جامعية وأطروحتات دكتوراه لا يستهان بعدها وقيمتها العلمية استهدفت وضع أنحاء وظيفية للغة العربية الفصحى. للقضايا المرتبطة بالظاهرة اللغوية موضوع الدرس انطلاقا من الأسس النظرية و المفاهيمية لنحو اللغة العربية الوظيفي وبإمكاننا توضيح هذه العملية كالتالي:



دور النحو الوظيفي في مواجهة المقاربات اللسانية الحديثة و تعزيز المرجعية التراثية للنحو العربي و النتيجة التي نستخلصها مما سبق يمكن إجمالها في النقاط الآتية: من أهم ما يعسر النحو على المتعلمين ثلاثة أشياء :
أولاً : فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا و يعلّموا و يسرفوا في الافتراض و التعليل .
ثانياً: إسراف في القواعد نشأ عنه إسراف في المصطلحات.
ثالثاً: إمعان في التعمق العلمي باعد بين النحو و الأدب.

من هذا المنطلق ددعو في خاتمة هذه المداخلة إلى التمسك بالنحو لأنه العمود الفقري الذي تقوم عليه العربية الفصحى، لكن هذا لا يمنع من الدعوة إلى بعثه من جديد في عصر طفت عليه العولمة والتقدم التكنولوجي حتى تتغذى علينا بالنظريات اللسانية الحديثة وبخاصة نظرية النحو الوظيفي التي تراوح بين التراث و المعاصرة أي أنها أعادت قراءة تراثنا النحوي العربي في ضوء المعطيات اللسانية للنحو الوظيفي؛ ولعل هذه الدعوة ستكون حافزا لتخليص النحو من العيوب سالفة الذكر بحيث تبعده عن الافتراضية و القواعد التعليلية و تقارب بين أصوله الثابتة و المتحولة.

مراجع البحث:

1. إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1937
2. أحمد عبد العظيم عبد الغني: القاعدة النحوية (دراسة نقدية تحليلية)، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1990
3. أحمد المتوكل: من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1987
4. إسماعيل مظهر: تجديد العربية (حيث تصبح وافية بمطالب العلوم و الفنون)، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت
5. أبو البركات الأنباري: الإنصال في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين، تتح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، دار إحياء التراث العربي 1961

6. أبو البقاء العكري: *اللباب في علل البناء والإعراب*, تج غازي مختار طليمات, دار الفكر العربي المعاصر, بيروت- لبنان، ط1، 1995
7. تمام حسان: *اللغة العربية معناها و مبنها*, الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973
8. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،*اقتراح في علم أصول النحو*، تج محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1998
9. ابن جني أبو الفتح عثمان: *الخصائص*, تج محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1995
10. الحاج صالح (عبد الرحمن) : *المدرسة الخليلية الحديثة و مشاكل علاج العربية بالحاسوب*, محاضرة مرقونة - ألقيت بملتقى اللسانيات بكلية التربية بجامعة الرباط / المغرب ، 1990
11. حسن عون: *تطور الدرس النحووي*, معهد البحث و الدراسات العربية، القاهرة، 1970
12. حسني عبد الباري عصر: *الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية*, مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2000
13. خاطر محمود رشدي و آخرون: *طرق تدريس اللغة العربية و التربية الدينية في ضوء الاتجاهات التربوية الحديثة*, دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1983
14. زهيرة قروي: *المصطلحات الصوتية و النحوية عند البصريين في ضوء اللسانيات الحديثة*, أطروحة دكتوراه دولية في اللسانيات، جامعة 01 قسنطينة، الجزائر، 2007
15. زهيرة قروي: *المرتكزات المعرفية للفظ النحو في خلفيات التفكير العربي*, مجلة كلية الآداب، جامعة حلوان، العدد 2011، 30
16. شوقي ضيف: *تسهيل النحو التعليمي مع نهج تجديده*, دار المعارف، مصر، 1986
17. عبد السلام المسدي: *الفكر العربي و الألسنية*, اللسانيات و اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية / تونس ، ع(04)، 1985
18. عبد القادر الفاسي الفهري: *اللسانيات و اللغة العربية*, دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1985
19. عز الدين مجذوب: *المنوال النحووي العربي* (قراءة لسانية جديدة)، دار محمد علي الحامى للنشر و التوزيع، الجمهورية التونسية، ط1، 1998
20. علي أحمد مذكر: *تدريب فنون اللغة العربية*, دار الشوااف للنشر و التوزيع، الرياض، 1991
21. علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوجيدي ،*الإمتاع و المؤانسة* ، علق عليه محمد الفاضلي ،دار الأبحاث و النشر و التوزيع /الجزائر 2007
22. مازن الورع: *قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث*, دار طلاس للنشر و التوزيع، دمشق
23. محمد أحمد برانق، *النحو المنهجي* ، مطبعة لجنة البيان العربي
24. محمد عبد الرحمن الرمالي: *العربية و الوظائف النحوية*, دار المعرفة الجامعية، الأزاريطه، مصر، 1996
25. محمد عيد: *أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء و ضوء علم اللغة الحديث* ، ط4، عالم الكتب القاهرة / مصر
26. مصطفى غلغان: *اللسانيات العربية (أسئلة المنهج)*, دار وردالأردنية للنشر و التوزيع، ط1، 2013
27. ابن مضاء: *الرد على النحاة*, تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1982
28. مهدي المخزومي: *في النحو العربي نقد و توجيه*, دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، ط2، 1986
29. نهاد الموسى: *مقدمة في علم تعلم اللغة العربية*, ضمن سلسلة اللسانيات في خدمة اللغة العربية، مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية، الجامعة التونسية، 1981
30. ابن يعيش موفق الدين ، *شرح المفصل* ، تج: الدكتور فخر الدين قباوة ، ط1 ، المكتبة العربية ، حلب سوريا 1983

¹-Anne abeillé : les nouvelles syntaxes, grammaires d'unification et analyse du français, paris, 1993, p 41.